# جماليات التشاكل والتباين في تخليص الابريز: تحليل سيميائي للبنية النصية


**رجاء رحمان مهدي**

**المرشحة للدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران**

**أ.د.حسين كياني**

**أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران**

**د. بشرى سادات ميرقادرى**

**استاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، ايران**


# The aesthetics of symmetry and contrast in the purification of the jewel: Semiotic analysis of textual structure


***Rajaa Rahman Mahdi***

***PhD Candidate in the Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran***

***rjaarhman@gmail.com***

***Prof. Dr. Hussein Kiani***

***Professor in the Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran***

***hkyanee@yahoo.com***

***Dr. Boshra Sadat Mirqadari***

***Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Shiraz University, Iran***

***bsmirghaderi@yahoo.com***

**المستخلص**

**تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن جماليات التشاكل والتباين في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) لرفاعة الطهطاوي، من خلال مقاربة سيميائية للنص تكشف عن الآليات الدلالية التي أسس بها الطهطاوي خطابه النهضوي. ينطلق البحث من فرضية أساسية مفادها أن التشاكل والتباين ليسا مجرد محسنات بلاغية، بل يشكّلان بنية نصية عميقة تنتظم عبرها الرؤية الثقافية للنص.**

**يعتمد البحث المنهج السيميائي النصي، مستفيدًا من تصورات غريماس وبارت حول مفهوم التشاكل (isotopie) والتباين (opposition)، ليتتبع كيف تكررت وحدات معجمية مرتبطة بالعلم والنظام والتمدن لتؤسس تشاكلًا دلاليًا يوحّد النص، وكيف برزت ثنائيات متقابلة من قبيل (شرق/غرب، مدنية/جهل، إصلاح/تخلف) لتكشف عن استراتيجية نقدية إصلاحية.**

**وقد توصّل البحث إلى أن التشاكل وفّر للنص انسجامًا دلاليًا يعكس وحدة الرؤية النهضوية للطهطاوي، فيما أسهم التباين في إبراز التوتر النقدي وإعادة تشكيل العلاقة مع الآخر الغربي في ضوء مشروع حضاري عربي/إسلامي. وبذلك يقدّم النص نموذجًا مبكرًا لتفعيل الآليات السيميائية في الكتابة العربية الحديثة.**

**الكلمات المفتاحية**

**الجماليات السيميائية – التشاكل – التباين – تخليص الإبريز – رفاعة الطهطاوي – البنية النصية.**

**Abstract**

**This study aims to reveal the aesthetics of isotopy and opposition in Takhlis al-Ibriz fi Talkhis Paris by Rifaʿa al-Tahtawi, through a semiotic approach to the text that exposes the semantic mechanisms by which al-Tahtawi established his Nahdawi discourse. The research begins from a central hypothesis which states that isotopy and opposition are not merely rhetorical embellishments, but rather constitute a deep textual structure through which the cultural vision of the text is organized.**

**The study applies the textual semiotic method, making use of the theories of Greimas and Barthes on the concepts of isotopy and opposition, to trace how lexical units related to science, order, and civilization were repeated to create a semantic isotopy that unifies the text, and how binary oppositions such as (East/West, Civilization/Ignorance, Reform/Backwardness) emerged to uncover a critical reformist strategy.**

**The research concludes that isotopy provided the text with semantic coherence that reflects al-Tahtawi's unified reformist vision, while opposition contributed to highlighting the critical tension and reshaping the relationship with the Western "Other" in the light of an Arab-Islamic civilizational project. Thus, the text presents an early model for activating semiotic mechanisms in modern Arabic writing.**

**Keywords: Semiotic aesthetics – Isotopy – Opposition –Takhlis al-Ibriz – Rifaʿa al-Tahtawi – Textual structure.**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**المقدمة**

**أهمية الموضوع**

يمثل كتاب (تخليص الإبريز) واحدًا من أبرز النصوص النهضوية التي وثّقت صدمة اللقاء مع الغرب في القرن التاسع عشر. غير أن قيمته لا تقف عند حدود السرد الرحلي أو الوصف التاريخي، بل تتجاوز ذلك إلى بناء خطاب نقدي–ثقافي زاخر بالآليات السيميائية. ومن بين هذه الآليات يبرز التشاكل والتباين كأدوات جمالية تسهم في إنتاج الدلالة، وترسيخ الرؤية الإصلاحية التي سعى الطهطاوي إلى تمريرها عبر نصه.

إشكالية البحث:

تتمثل الإشكالية الرئيسة في السؤال:

كيف أسهمت آليتا التشاكل والتباين في بناء البنية النصية لـ (تخليص الإبريز) وإنتاج دلالته النهضوية؟

أسئلة الدراسة:

١. ما أبرز أنماط التشاكل السيميائي التي أسهمت في بناء وحدة النص؟

٢. كيف وظّف الطهطاوي التباين لإبراز رؤيته الإصلاحية؟

٣. ما العلاقة بين التشاكل والتباين وبين البنية النقدية–الثقافية في النص؟

فرضيات البحث:

١. يتمثل التشاكل السيميائي في تكرار وحدات دلالية (العلم، النظام، الحضارة) التي أسهمت في بناء وحدة النص وانسجامه.

٢. استثمر الطهطاوي التباين عبر ثنائيات (شرق/غرب، مدنية/تخلف) لإبراز خطابه الإصلاحي.

٣. العلاقة بين التشاكل والتباين علاقة تكاملية: فالأول يوفّر التماسك الداخلي للنص، والثاني يفتح النص على بعده النقدي والثقافي.

منهجية البحث

ينطلق هذا البحث من اعتماد (المنهج السيميائي النصي) الذي يتعامل مع النص الأدبي بوصفه منظومة من العلامات والرموز، تتشابك فيما بينها لتنتج شبكة دلالية متكاملة. ويقوم هذا المنهج على الجمع بين الوصف والتحليل؛ فهو وصفي من حيث تتبع الظواهر النصية وتسجيلها بدقة، وتحليلي من حيث تفسير وظائف هذه الظواهر وربطها بالرؤية الثقافية التي تحكم النص. وقد استفاد البحث من التصورات التي قدّمها غريماس حول مفهوم التشاكل باعتباره تكرارًا دلاليًا يمنح النص انسجامه الداخلي، وكذلك من فكرة التباين التي عالجها بارت في إطار الثنائيات الضدية التي تُظهر التوتر الدلالي وتفتح النص على أفق نقدي أوسع.

ولأجل الوصول إلى نتائج أكثر دقة، اعتمد البحث على (إحصاء نصي بسيط) للمفردات المركزية في (تخليص الإبريز)، وذلك من خلال استخراج الألفاظ الأكثر تداولًا وارتباطًا بالبنية الإصلاحية للنص، مثل مفردات (العلم، والنظام، والتمدن، والحضارة). وقد جرى رصد هذه المفردات في مواضعها المختلفة داخل النص، وملاحظة عدد مرات تكرارها، ثم تصنيفها ضمن حقول دلالية متقابلة، مثل حقل النهضة في مقابل حقل التخلف، أو حقل الحضارة الغربية في مقابل حقل الواقع الشرقي. ولم يكن الغرض من هذا الإحصاء مجرد العدّ الكمي للمفردات، بل الكشف عن الدور الوظيفي الذي أدّته هذه الألفاظ في بناء التشاكل أو في تأكيد التباين.

إنّ اختيار هذه المفردات بالذات لم يأتِ اعتباطيًا، وإنما لأنها تمثل المفاتيح الدلالية الأكثر حضورًا في خطاب الطهطاوي، وتشكل النواة الصلبة التي التفّت حولها بنية النص. فهذه الألفاظ هي التي تتكرر باستمرار لتؤسس التشاكل الذي يوحّد الدلالة، وهي نفسها التي تدخل في ثنائيات ضدية تبرز التباين، مثل ثنائية (العلم/الجهل، أو النظام/الفوضى، أو المدنية/التخلف). ومن ثم فإنّ هذه المفردات ليست مجرد وحدات لغوية متفرقة، بل علامات سيميائية محمّلة برؤية ثقافية محددة، تعكس وعي الطهطاوي بضرورة الإصلاح، وتؤكد في الوقت نفسه الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب.

وبهذا المعنى فإنّ المنهجية المعتمدة في هذا البحث تسعى إلى الربط بين البنية النصية الداخلية للنص (المتمثلة في التشاكل والتباين) وبين الرؤية النهضوية الكبرى التي أراد الطهطاوي تمريرها، ليغدو النص مثالًا مبكرًا على توظيف الآليات السيميائية في خدمة مشروع ثقافي إصلاحي.

التمهيد

إنّ مقاربة النصوص الأدبية من منظور سيميائي تتيح لنا تجاوز حدود القراءة الوصفية التقليدية نحو الغوص في البنى العميقة التي تنتج الدلالة وتضبط مساراتها. فالنص الأدبي ليس مجرد تراكم لألفاظ أو أحداث، بل هو نظام دلالي تحكمه آليات متكررة ومتمايزة، تعمل على ربط وحداته الجزئية في نسيج منسجم ومتماسك. وفي هذا السياق يبرز مفهوم الجماليات السيميائية، الذي يدرس العلامات والرموز ليس فقط من حيث وظيفتها الإشارية، بل من حيث طاقتها الجمالية وقدرتها على إنتاج قيم حضارية وثقافية.

الجماليات السيميائية لا تعني الزينة أو التحسين اللفظي، بل تشير إلى البنية الداخلية التي تجعل من النص حدثًا دلاليًا وجماليًا في آن واحد. فالعلامة اللغوية حين تتكرر أو تتقابل مع أخرى، تُنتج شبكة من العلاقات التي تُعيد تشكيل المعنى، وتجعل القارئ أمام خطاب ممتد يتجاوز حدوده الظاهرة. ومن هنا، فإنّ دراسة (تخليص الإبريز) بوصفه نصًا سيميائيًا يعني تتبّع تلك الشبكات التي بُني عليها الخطاب النهضوي الذي أراده الطهطاوي.

ويأتي التشاكل في قلب هذه العملية. فقد استخدم غريماس المصطلح ليشير إلى تكرار وحدات دلالية متقاربة داخل النص، بما يجعل المتلقي يتلقى النص على أنه وحدة منسجمة في معناها. فعندما يكرر الطهطاوي ألفاظًا مثل (العلم، والنظام، والمدنية) في أكثر من سياق، فإنه لا يقوم بالتكرار من باب المصادفة أو البلاغة السطحية، بل يرسّخ تشاكلًا سيميائيًا يجعل القارئ يستشعر أنّ هذه المفاهيم هي المحور الذي يدور حوله النص. التشاكل إذن هو الضامن لوحدة المعنى واستمرارية التأويل، وهو ما يجعل خطاب الطهطاوي متماسكًا رغم كثرة موضوعاته وتشعب رحلته.

أما التباين فيمثل الوجه الآخر للعملية الدلالية. فالمعنى لا يُدرك من خلال التكرار وحده، بل كثيرًا ما يتولد عبر إبراز الفروق والتقابلات. ومن هنا يصبح التباين أداة جمالية–سيميائية تُظهر التوتر بين ثنائيات مثل: (شرق/غرب، مدنية/جهل، إصلاح/تخلف). الطهطاوي في (تخليص الإبريز) لم يكتفِ بوصف ما رآه في باريس من علوم ونظم، بل قارنها بما كان في مصر والعالم الإسلامي، فجاء النص مليئًا بالمقابلات التي تضيء الفارق وتوجّه القارئ نحو إدراك الحاجة إلى الإصلاح. بهذا يصبح التباين أداة نقدية بامتياز، تكشف عن وظيفة النص الحضارية بوصفه خطابًا إصلاحيًا.

ومن ثَمّ، فإنّ العلاقة بين التشاكل والتباين ليست علاقة تناقض، بل علاقة تكامل. فالتشاكل يضمن وحدة النص الداخلية عبر التكرار، فيما يفتح التباين النص على الخارج عبر إبراز الاختلاف. وبهذا المعنى يمكن القول إنّ (تخليص الإبريز) نص يشتغل على جبهتين: جبهة التكرار الدلالي الذي يؤسس لرؤية النهضة، وجبهة التقابل النقدي الذي يكشف الفجوة بين الشرق والغرب.

إنّ دراسة هاتين الآليتين السيميائيتين في نص الطهطاوي ليست مجرد تمرين نظري، بل هي محاولة لإعادة قراءة النص في ضوء وظيفته الثقافية. فالتشاكل يعبّر عن الإصرار على قيم النهضة بوصفها أساس البنية، بينما يعبّر التباين عن النقد الحضاري الذي يشير إلى ضرورة الانتقال من حالة التخلف إلى حالة الإصلاح. وهكذا يغدو النص شاهدًا على لحظة تاريخية فارقة، يُعاد من خلالها تشكيل العلاقة بين النص الأدبي والواقع الثقافي.

المبحث الأول: التشاكل السيميائي وآليات التكرار الدلالي

تمهيد :

يُعَدّ التشاكل من المفاهيم المركزية في النظرية السيميائية الحديثة، وهو يشير إلى انتظام الحقول الدلالية داخل النص من خلال تكرارها وإعادة إنتاجها في مستويات متعددة. فإذا كانت النصوص الأدبية، خصوصًا النصوص الرحلية، تتميز بتنوع موضوعاتها وتشعبها بين الوصف والتأمل والتحليل، فإن التشاكل يأتي ليعيد تنظيم هذه الموضوعات ويمنحها وحدة داخلية. وقد صاغ أ. ج. غريماس هذا المفهوم بوصفه "الخيط الذي يشدّ أجزاء النص بعضها إلى بعض" (غريماس، ١٩٨٧، ص. ٤٥)، ورأى أنّه الآلية التي تجعل النص مقروءًا كوحدة منسجمة رغم تعدد مظاهره.

أما رولان بارت، فقد بيّن في( لذة النص) أنّ التكرار لا يُعد فائضًا أو عبثًا، بل هو "إيقاع داخلي يولّد المعنى ويضاعفه" (بارت، ١٩٩٣، ص. ٧٨). أي أن تكرار الكلمات أو الصور أو القيم يحوّلها من وحدات جزئية إلى "عُقَد دلالية" تنسج حولها بقية النص. وفي السياق العربي، أكّد كمال أبو ديب (١٩٩٢، ص. ٤٢) أن التشاكل يخلق الانسجام الداخلي للنص من خلال تكرار الوحدات الدلالية، بينما عدّه عبد الملك مرتاض (٢٠٠٠، ص. ١١٥) نوعًا من "التواطؤ التأويلي"، لأن القارئ حين يواجه التكرار يدرك أن النص يوجّهه نحو معنى محدد.

إذا طبقنا هذه الرؤية على تخليص الإبريز للطهطاوي، سنجد أنّ النص، رغم كونه وصفًا لرحلة باريسية في القرن التاسع عشر، لا يتوزع على موضوعات متفرقة بلا رابط، بل يظل ممسوكًا بخيوط داخلية أساسها تكرار ألفاظ وصور وقيم بعينها مثل: العلم، النظام، التمدن، الحضارة. هذه المفردات تشكّل البنية التحتية للنص وتمنحه انسجامه. وسنحاول في هذا المبحث رصد التشاكل في ثلاثة مستويات: المعجمي، السردي، القيمي.

المحور الأول: التشاكل المعجمي

يمثل التشاكل المعجمي أو اللفظي المستوى الأول والأكثر وضوحًا للتشاكل. ويتمثل في تكرار ألفاظ محورية داخل النص، بحيث تتحول إلى علامات سيميائية تُعبّر عن الرؤية الأساسية للكاتب. وقد رأى كمال أبو ديب أن التكرار اللفظي "يصنع مركزًا دلاليًا للنص، ويجعل القارئ يعود باستمرار إلى الفكرة نفسها" (أبو ديب، ١٩٩٢، ص. ٤٢). بينما أشار بارت (١٩٩٣، ص. ٧٨) إلى أن تكرار الكلمات يمنحها إيقاعًا داخليًا يجعلها ترن في ذاكرة القارئ، فلا يخرج من النص إلا وهي ماثلة في ذهنه.

في تخليص الإبريز، نلاحظ أنّ الطهطاوي كرر ألفاظًا بعينها: العلم، النظام، المدرسة، العساكر، الحضارة. وهذا التكرار لم يكن صدفة، بل هو أسلوب واعٍ لصياغة خطاب إصلاحي متماسك.

يقول الطهطاوي:

"هي محالّ يتعلم فيها الصغار القراءة والكتابة والحساب قبل أن يبلغوا، ثم ينتقلون في مراتب العلم طبقة بعد طبقة" (تخليص الإبريز، ص. ٧٩).

هنا تتكرر ألفاظ يتعلم، القراءة، الكتابة، الحساب، مراتب، طبقة، لتكوّن حقلاً دلاليًا يرسّخ قيمة العلم المؤسسي المتدرج.

وفي وصفه المدارس:

"إنها مصانع الرجال" (تخليص الإبريز، ص. ٧٩).

الاستعارة تؤكد أن التعليم ليس عملية معرفية فقط، بل صناعة الإنسان الجديد.

ويقول عن الجيش:

"فانظر إلى ترتيب العساكر الجهادية، ألايات المدارس الحربية، فإنك ترى نظامًا ضروريًا وأمرًا محكمًا" (تخليص الإبريز، ص. ١١٩).

الألفاظ ترتيب، نظام، محكم تتكرر لتُكوّن حقلاً دلاليًا حول قيمة النظام.

"وأما عساكرهم فإنهم يتعلمون العلوم الرياضية والهندسية قبل أن يدخلوا المدارس الحربية" (تخليص الإبريز، ص. ١٢١).

لأن هذا المثال يوسّع التشاكل، إذ يربط بين العلم والنظام العسكري.

هذا المثال يربط بين العلم والنظام في آن واحد، مما يجعل التشاكل المعجمي (العلوم) يتقاطع مع التشاكل السردي (الجيش) فالنص يكرّر حقل "العلم" في سياق عسكري.

وهذا ما يسميه محمد مفتاح "تواترًا نصيًا" (١٩٩٠،ص.٦٣)، حيث تتضافر الحقول الدلالية لبناء وحدة متماسكة.

وبهذا يصبح النظام والعلم علامتين متلازمتين، وهو ما يرسّخ صورة الحضارة الأوروبية كمنظومة شاملة تجمع بين المعرفة والتنظيم.

يتضح أنّ الطهطاوي قصد إلى تكرار مفردات العلم والنظام في أكثر من سياق، لأنهما يمثلان محور مشروعه الإصلاحي.

ومن غرائب عاداتهم أن كل واحد يعرف حدّه ومرتبته، فلا يتعداها إلى غيره" (تخليص الإبريز، ص. ١١٤).

هذا النص يوسّع دائرة التشاكل المعجمي، حيث تتكرر مفردات مثل (حدّه، مرتبته، لا يتعداها) لتعكس قيمة النظام الاجتماعي. فالنظام لا يظهر فقط في المؤسسات الكبرى، بل يتجلى أيضًا في تفاصيل الحياة اليومية. وهو ما يؤكد ما ذهب إليه صلاح فضل في كتابه بلاغة الخطاب وعلم النص، حين يرى أن التكرار المعجمي "يرسم حدود الثقافة، ويجعلها قابلة للتمثل" (فضل، ١٩٩٢، ص. ٧٧).

وهذا ما يتفق مع رؤية مرتاض (٢٠٠٠، ص. ١١٥) الذي اعتبر أنّ التشاكل يوجّه القارئ إلى قراءة النص كوحدة دلالية متماسكة. إنّ هذا التكرار المعجمي يحول المفردة من مجرد عنصر لغوي إلى "علامة ثقافية" تُلخّص فكر النهضة.

المحور الثاني: التشاكل السردي

لا يقتصر التشاكل على المفردات، بل يمتد إلى الصور السردية. فالنص قد يعيد تقديم مشاهد متقاربة في مواضع مختلفة لتؤدي المعنى نفسه. وهذا ما يسميه النقاد "التوازي السردي"، حيث يعاد إنتاج الفكرة الأساسية بأشكال متعددة. وقد بيّن بارت (١٩٩٣،

ص. ٧٩) أن تكرار الصور السردية يخلق إيقاعًا دلاليًا يجعل النص يبدو وكأنه يعزف نغمة واحدة بألحان مختلفة.

في (تخليص الإبريز)، أعاد الطهطاوي تقديم صورة النظام في أكثر من مجال: التعليم، الأسواق، العمران. وهذا التشاكل السردي يرسّخ فكرة أن النظام ليس خاصية قطاع بعينه، بل قيمة كلية تحكم الحياة الأوروبية.

عن التعليم:

"ومن جملة ترتيب المدارس أن لكل علم مدرسة مخصوصة، ولها نظام لا يتخلف" (تخليص الإبريز، ص. ١٣٥).

عن الأسواق:

"رأيت سوقًا منظمة كأنها قصر، فيها أنواع السلع مرتبة، ولا ضوضاء، وكل تاجر يعرف مكانه وحدوده" (تخليص الإبريز، ص. ١١٢).

عن العمران:

"والشوارع عندهم مرصوفة بالحجارة، نظيفة على الدوام، لا ترى فيها شيئًا من القاذورات" (تخليص الإبريز، ص. ١٤١).

تُظهر هذه النماذج أنّ صورة النظام تتكرر في مستويات متعددة: في المدرسة، في السوق، في الشارع. هذا التشابه السردي يعكس رؤية الطهطاوي بأن الحضارة الأوروبية تقوم على النظام في كل شيء. وبهذا المعنى، فإن التشاكل السردي يحوّل النص من وصف جزئي إلى خطاب كلي متماسك. وهو ما يوافق ما ذهب إليه غريماس (١٩٨٧، ص. ٤٥) بأن التشاكل يجعل النص "نسيجًا مترابطًا" رغم تنوع موضوعاته.

"ولهم في المراسيم والعوائد نظام مطّرد، فلا يُخلّون بشيء منها" (تخليص الإبريز، ص. ١٣٨).

هذه الصورة السردية تعيد إنتاج قيمة النظام في سياق العادات والمراسيم الاجتماعية، مما يوسع مجال التشاكل السردي. وهنا يظهر ما سماه محمد مفتاح في دينامية النص بـ"التواتر النصي"، أي إعادة الصور المشابهة عبر النص لتكوين نغمة دلالية متواترة (مفتاح، ١٩٨٧، ص. ٦٣).

المحور الثالث: التشاكل القيمي/الثقافي

إلى جانب التشاكل اللفظي والسردي، هناك التشاكل القيمي، وهو أكثر عمقًا، لأنه يقوم على تكرار قيم حضارية وأخلاقية بعينها. هذه القيم حين تتكرر تتحول إلى "قيم عليا" تشكّل نواة الثقافة التي يعكسها النص. وقد رأى مرتاض (٢٠٠٠، ص. ١١٨) أن النصوص لا تكتفي بذكر القيم مرة واحدة، بل تعيدها في أكثر من موضع، لتجعلها مسيطرة على أفق القراءة.

عن احترام الوقت:

"ومن عاداتهم أنهم يحترمون المواعيد حتى في دقائق الأمور" (تخليص الإبريز، ص. ١٤٤).

عن الحياء:

"النساء عندهم يخرجن ويخالطن، ومع ذلك لا ترى ما يخدش الحياء" (تخليص الإبريز، ص. ١٥١).

عن النظافة:

"والشوارع عندهم مرصوفة بالحجارة، نظيفة على الدوام" (تخليص الإبريز، ص. ١٤١).

هذه النماذج تكشف أنّ الطهطاوي لم يكن يصف مظاهر حضارية فقط، بل كان يكرر قيمًا أخلاقية يراها أساسًا لنهضة الأمم: احترام الوقت، الحياء، النظافة "

"ومن جملة فضائلهم صدق المعاملة، حتى إنك لا ترى غشًا في بيع ولا شراء" (تخليص الإبريز، ص. ١٤٥).

تُظهر هذه العبارة قيمة أخلاقية (الصدق) تنضاف إلى شبكة القيم الأخرى (النظافة، الحياء، احترام الوقت)، لتشكل ما سماه سعيد بنكراد في السيميائيات: أسسها وتطبيقاتها "حقول القيم المتكررة"، وهي التي تمنح النص انسجامه الثقافي والدلالي (بنكراد، ١٩٨٥، ص. ١١٢).

هذا التشاكل القيمي يرسّخ صورة الغرب كحضارة متكاملة، ليس فقط علميًا وتنظيميًا، بل أيضًا أخلاقيًا. وبذلك يظهر أنّ التشاكل القيمي يعمل جنبًا إلى جنب مع التشاكل اللفظي والسردي ليصوغ صورة النهضة.

خاتمة المبحث:

يكشف التشاكل في (تخليص الإبريز) عن أنّ النص لم يكن مجرد وصف جزئي لرحلة، بل خطاب إصلاحي يقوم على إعادة إنتاج قيم النهضة عبر مستويات معجمية وسردية وقيمية. فالتشاكل المعجمي أبرز ألفاظ (العلم، والنظام) كمفاتيح نصية، والتشاكل السردي أعاد هذه القيم في صور متعددة (مدارس، أسواق، شوارع)، والتشاكل القيمي أكد أنّ هذه الحضارة ترتكز على أخلاق مثل احترام الوقت والنظافة والحياء. وهكذا، يصبح التشاكل الآلية السيميائية التي جعلت النص متماسكًا، ورسّخت مشروع الطهطاوي النهضوي.

المبحث الثاني: التباين السيميائي واستراتيجية التقابل النصي

تمهيد

يقوم مبدأ التباين في السيميائيات على الفكرة الجوهرية التي طرحها **دي سوسير** حين أكّد أنّ المعنى لا يُدرك إلا من خلال الفارق. فالكلمة لا تحمل قيمة في ذاتها، بل بما يقابلها من كلمات أخرى. هذا المبدأ أعاد غريماس صياغته في ما يُعرف بـ"المربع السيميائي"، حيث تُفهم المفاهيم عبر تضادها، ونفي هذا التضاد، وما يترتب عليه من إمكانات جديدة (غريماس، ١٩٨٧، ص. ٥٥).

في ضوء ذلك، يمكن القول إنّ *تخليص الإبريز* ليس مجرد نص رحلي وصفي، بل نصّ يقوم على إستراتيجية التباين لإبراز الرؤية الإصلاحية للطهطاوي. فكل قيمة إيجابية في النص (النظام، العلم، الحرية، المدنية) لا تُطرح في ذاتها فقط، بل في مقابل نقيضها (الفوضى، الجهل، الاستبداد، الجهل الحضاري). وهذه الثنائية تخلق توترًا دلاليًا يعكس الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، وفي الوقت نفسه تفتح المجال لإمكان ثالث هو "النهضة"، أي انتقال الشرق من نقيضه السلبي إلى نفيه عبر الإصلاح.

ومن هنا، يصبح التباين السيميائي أداة الطهطاوي لتمرير مشروعه الإصلاحي، فهو لا يصف باريس لذاتها، بل ليجعلها مرآة يرى القارئ الشرقي نفسه من خلالها. وبذلك يتحوّل النص من وصف خارجي إلى خطاب نقدي داخلي، غايته تحريك الوعي الإصلاحي.

المحور الأول: ثنائية النظام/الفوضى

تُعدّ ثنائية النظام/الفوضى من أبرز الثنائيات في تخليص الإبريز. فالطهطاوي أدرك أنّ سرّ قوة أوروبا الحديثة يكمن في انتظامها المؤسسي والإداري، بدءًا من المدرسة

والجيش إلى السوق والشارع. في المقابل، فإن الفوضى التي كانت سائدة في الشرق مثّلت عائقًا أمام النهضة. ومن هنا، فإن إبراز هذه الثنائية لم يكن محايدًا، بل كان موجّهًا لإقناع القارئ الشرقي بضرورة الانتقال من الفوضى إلى النظام.

في وصف السوق الفرنسية يقول الطهطاوي:

"رأيت سوقًا منظمة كأنها قصر، فيها أنواع السلع مرتبة، ولا ضوضاء، وكل تاجر يعرف مكانه وحدوده" (تخليص الإبريز، ص. ١١٢).

الصورة تبرز عناصر متعددة للنظام: الترتيب المكاني، غياب الفوضى الصوتية، وضوح الأدوار.

وفي وصف الجيش:

"العساكر مصطفة على ترتيب بديع، لا يخل به أحد" تخليص الإبريز، ص. ١١٩).

إذا طبقنا المربع السيميائي نجد:

النظام يقابله الفوضى.

نفي النظام = العشوائية.

نفي الفوضى = بداية التنظيم.

وبهذا يصبح "النظام" قيمة عليا، و"الفوضى" قيمة سلبية، بينما يفتح "نفي الفوضى" أفقًا للشرق ليتحول من العشوائية إلى التنظيم. وهذا ما عبّر عنه الطهطاوي ضمنًا حين جعل الأسواق الباريسية "قصورًا" والأسواق الشرقية فضاءات للفوضى.

"الشوارع عندهم مرصوفة بالحجارة، نظيفة على الدوام، لا ترى فيها شيئًا من القاذورات" (تخليص الإبريز، ص. ١٤١).

هذا النص يعيد التباين بين نظام الغرب وفوضى الشرق. النظام هنا لم يعد خاصية اقتصادية أو تعليمية فحسب، بل صار جزءًا من الفضاء المديني اليومي.

ويشير محمد مفتاح إلى أن "البنية التباينية هي التي تمنح النص توتره الدلالي"، أي أنها تضع القارئ أمام خيار حضاري (مفتاح، ١٩٨٧، ص. ٧٤).

المحور الثاني: ثنائية العلم/الجهل

العلم عند الطهطاوي ليس مجرد موضوع، بل هو العمود الفقري للنهضة. وقد كرّس فصولًا كاملة للحديث عن المدارس، والكتب، والمكتبات، والتعليم العسكري والمدني. في المقابل، فإن الجهل مثّل عنده سببًا مباشرًا للتخلف الشرقي. وقد عبّر عن هذه الثنائية غالبًا بلغة رمزية: النور/الظلام. فباريس مدينة الأنوار، بينما القاهرة مدينة مظلمة، ليس فقط في طرقها، بل في عقول أهلها.

يقول الطهطاوي:

"باريس من أبهى مدن العالم، كلها أنوار، حتى إنك تسير في ليلها كما تسير في نهارها" (اتخليص الإبريز، ص. ٦٠).

ويشير ضمنًا إلى القاهرة حيث "الليل مظلم والفوضى سائدة"، في إحالة إلى غياب العلم.

"ومن جملة أحوالهم أنهم يدرسون علومًا نافعة مثل الحساب والهندسة والطبيعة، فلا يخلو واحد منهم من معرفة بها" (تخليص الإبريز، ص. ١٣٦).

النص يعزز ثنائية العلم/الجهل من خلال ربط العلم بالمنفعة العملية، في مقابل غياب هذه العلوم في الشرق. وهنا نجد صدى لرؤية صلاح فضل بأن الثنائيات الضدية في النصوص النهضوية "ليست مجرد توصيف بل إستراتيجية حجاجية لإحداث وعي نقدي" (فضل، ١٩٩٢، ص. ٩١).

هنا يظهر التباين من خلال شبكة رمزية:

العلم = النور = الحضارة.

الجهل = الظلام = التخلف.

وبحسب غريماس، فإن هذه الثنائية لا تكتمل إلا إذا وُجد "إمكان ثالث"، وهو "نفي الجهل" أي بداية النهضة. وهذا ما قصده الطهطاوي حين دعا إلى إنشاء المدارس ونشر العلم ليصبح الشرق شريكًا في المدنية. وهكذا، تتحول ثنائية العلم/الجهل إلى خطاب إصلاحي يدعو القارئ إلى تبني النور ونبذ الظلام.

المحور الثالث: ثنائية الحرية/الاستبداد

تمثل الحرية عند الطهطاوي قيمة سياسية عليا، ترتبط بالمشاركة الشعبية في الحكم واحترام القوانين. في المقابل، فإن الاستبداد يمثل الوجه الآخر الذي يحرم الناس من حقوقهم ويقيد حركتهم. وهذه الثنائية لم يطرحها الطهطاوي نظريًا فحسب، بل جسّدها عبر مقارنته بين الجمهورية الفرنسية والأنظمة الشرقية المطلقة.

يذكر عن فرنسا:

"الجمهورية حكم، وهذا للحكم منها تختاره من الكبار، ويجب عليهم أن ينفذوا ما أمرت به الأمة" (تخليص الإبريز، ص. ٩٥).

في هذه الثنائية نلمس بوضوح أثر الفكر الدستوري الغربي. فـ"الحرية" لا تعني فقط حرية الفرد، بل حرية الأمة في اختيار حكامها. أما "الاستبداد" فهو الوجه المقابل الذي يحوّل الأمة إلى رعايا.

"وأما الفرنسيون فإنهم يتخذون مجالس شورى، ويتداولون فيها الآراء قبل أن يقضوا أمرًا" (تخليص الإبريز، ص. ٩٧).

هنا يبرز التباين بين الحرية (المشاركة والمشورة) والاستبداد (القرار الفردي). ويعلق عبد الله الغذامي في النقد الثقافي على مثل هذه النصوص بوصفها "كشفًا لنسق الاستبداد وتقديمًا لبدائل ديمقراطية" (الغذامي، ٢٠٠٠، ص. ٧٧).

إذا طبقنا المربع السيميائي:

الحرية تقابل الاستبداد.

نفي الحرية = التبعية.

نفي الاستبداد = بداية الإصلاح الدستوري.

بهذا تصبح الحرية في النص دعوة إصلاحية لتبني المشاركة السياسية. وهذا ينسجم مع ما أكده مرتاض (٢٠٠٠، ص. ١٢٠) من أن الثنائيات النصية ليست محايدة، بل منحازة إلى قيم محددة.

المحور الرابع: ثنائية الشرق/الغرب

تُعد هذه الثنائية المظلّة الكبرى التي تنضوي تحتها كل الثنائيات الأخرى. فالشرق يمثل فضاءً للجمود والتقليد، بينما الغرب يمثل فضاءً للأنوار والعقلانية. لكن الطهطاوي لم يعرض هذه الثنائية بوصفها تبجيلًا للغرب أو إلغاءً للشرق، بل بوصفها إستراتيجية إصلاحية: الغرب نموذج يمكن الاستفادة منه، والشرق فضاء يحتاج إلى تجديد.

"باريس من أبهى مدن العالم، كلها أنوار" (*تخليص الإبريز*، ص. ٦٠).

في المقابل يشير إلى القاهرة حيث يسود الظلام والفوضى.

في المربع السيميائي:

الغرب = النور/العقل/التقدم.

الشرق = الظلام/التقليد/التأخر.

نفي الغرب = فقدان النور (عودة إلى التخلف).

نفي الشرق = بداية الإصلاح (الشرق المستنير).

وهكذا، فإن التباين لا يُطرح كقيمة ثابتة، بل كبنية مفتوحة تتيح للشرق أن ينتقل إلى مرحلة "الشرق المستنير". هذه الرؤية تجعل من النص مشروعًا إصلاحيًا يتجاوز حدود الوصف إلى الدعوة إلى النهضة.

المحور الخامس: ثنائية العفة/الانحلال

من بين التباينات السيميائية التي برزت في تخليص الإبريز، تميّز الطهطاوي بطرحه لرؤية جديدة تتعلق بصورة المرأة الغربية. فقد سادت في الثقافة الشرقية آنذاك تصورات نمطية ترى أنّ حرية المرأة في الغرب مرتبطة بالانحلال الأخلاقي وفقدان الحياء. غير أنّ الطهطاوي، من خلال مشاهداته الدقيقة، نقض هذه الصورة، إذ لاحظ أن المرأة في باريس تمارس حضورها في الفضاء العام بحرية واسعة، ومع ذلك لا يُخلّ ذلك بفضيلة الحياء أو بالعفة.

هذا التباين يُظهر أنّ النص لم يكتفِ بمعالجة الثنائيات الحضارية الكبرى (النظام/الفوضى، العلم/الجهل، الحرية/الاستبداد، الشرق/الغرب)، بل توسّع ليشمل البعد الاجتماعي–الأخلاقي. وهكذا تحوّلت المرأة إلى علامة سيميائية داخل النص، وظّفها الطهطاوي لتفكيك الصور المسبقة وإعادة إنتاج خطاب إصلاحي متوازن.

١. يقول الطهطاوي:

"النساء عندهم يخرجن ويخالطن، ومع ذلك لا ترى ما يخدش الحياء" (تخليص الإبريز، ص. ١٥١).

٢. ويضيف في موضع آخر:

"ومن محاسن أخلاق نسائهم أنهم يحترمن أنفسهن، فلا يتعرضن لما يجرح الحياء، ولو خالطن الرجال في الطرقات والمجالس" (تخليص الإبريز، ص. ١٥٣).

النصان معًا يقدّمان صورة مغايرة للصور النمطية الشرقية. فبينما اعتاد الشرقي أن يربط بين خروج المرأة وانهيار منظومة الأخلاق، فإن الطهطاوي يُظهر أن المجتمع الفرنسي استطاع أن يحقق معادلة صعبة: حرية المرأة مقرونة بالعفة.

على المستوى السيميائي، تشكّل هذه الثنائية (العفة/الانحلال) بُنية دلالية فرعية داخل شبكة التباينات. فالعفة علامة إيجابية تقابلها صورة نمطية عن الانحلال. غير أن النص يفتح المجال لقراءة ثالثة – وفق المربع السيميائي لغريماس – تتمثل في "الحرية المنضبطة"، أي إمكان الجمع بين الحرية والعفة معًا.

بهذا ينتقل النص من الثنائية القطبية(حرية = انحلال) إلى بنية مركبة (حرية + عفة)، مما يعكس أفقًا إصلاحيًا جديدًا في خطاب الطهطاوي.

هذا التباين يتقاطع مع ما طرحه إدوارد سعيد في الاستشراق (١٩٨١، ص. ١٤٤) حول الصور النمطية التي يصوغها كل مجتمع عن الآخر، إذ بيّن أن الشرق غالبًا ما شيطن صورة الغرب من خلال قوالب مسبقة. الطهطاوي هنا يمارس عملية "تفكيك" لهذه الصور عبر ملاحظات مباشرة.

كما يلتقي مع ما ذكره بد الله الغذامي في النقد الثقافي (٢٠٠٠، ص. ٨٥) من أنّ الثقافة العربية التقليدية أسست نسقًا قمعيًا حول المرأة يربط حضورها بالعار والانحلال، بينما النصوص الإصلاحية – مثل خليص الإبريز – تكشف هذا النسق وتعيد صياغة علاقة المرأة بالفضاء العام على نحو أكثر اتزانًا.

من خلال هذه الثنائية، يكشف الطهطاوي أن التباين السيميائي لا يقتصر على الحضارة والسياسة، بل يمتد إلى البنى الاجتماعية والأخلاقية. فالمرأة في نصه ليست مجرد عنصر وصفي، بل "علامة ثقافية" وظّفها لتأكيد أنّ الحرية لا تعني بالضرورة

الانحلال، بل يمكن أن تقترن بالعفة والحياء. وبهذا يكون قد قدّم رؤية إصلاحية سبقت زمنها، وأغنت شبكة التباينات في تخليص الإبريز.

خاتمة المبحث الثاني

يظهر من خلال تحليل التباين السيميائي في تخليص الإبريز أن الطهطاوي لم يكتف بوصف المشاهد الأوروبية، بل جعل من هذه المشاهد مرآة لعكس واقع الشرق، عبر بناء شبكة من الثنائيات الضدية التي حملت طابعًا إصلاحيًا وحجاجيًا. فقد أبرزت ثنائية النظام/الفوضى قيمة التنظيم الحضاري في مواجهة عشوائية الفضاء الشرقي، بينما جسّدت ثنائية العلم/الجهل الفارق بين نور المعارف الحديثة وظلام التقليد. أما ثنائية الحرية/الاستبداد فقد عرّت الأنظمة الشرقية وأظهرت الحاجة إلى مشاركة سياسية رشيدة. وتوجت هذه البنية ثنائية الشرق/الغرب التي شكّلت المظلة الكبرى لسائر الثنائيات، مقدمة الغرب نموذجًا حضاريًا يمكن الإفادة منه دون الوقوع في فخ التقليد الأعمى.

وإلى جانب هذه الأبعاد السياسية والفكرية، أضاف الطهطاوي بُعدًا اجتماعيًا جديدًا من خلال ثنائية العفة/الانحلال، حيث كسر الصورة النمطية الشرقية عن المرأة الغربية، وأظهر أن الحرية يمكن أن تقترن بالعفة، لتكون هذه الثنائية علامة على وعي نقدي مبكر بقضية المرأة في المجال العام.

وبذلك يمكن القول إنّ التباين في نص الطهطاوي ليس مجرد أداة وصفية، بل هو إستراتيجية سيميائية متكاملة تهدف إلى إعادة تشكيل الوعي الثقافي للقارئ الشرقي. فالرحلة لم تكن وصفًا محايدًا لباريس، بل مشروعًا إصلاحيًا يتوسل بالتباين ليبني حوارًا بين حضارتين، ويضع الشرق أمام مسؤوليته التاريخية في تبني قيم العلم والنظام والحرية، مع الحفاظ على أصالته الأخلاقية.

الخاتمة:

يتّضح من خلال هذه الدراسة أنّ تخليص الإبريز ليس مجرد نص رحلي وصفي، بل نصّ إصلاحي بامتياز، استثمر فيه رفاعة الطهطاوي أدوات السيمياء النصية لتأسيس خطاب حضاري متماسك. فقد كشف المبحث الأول أنّ التشاكل السيميائي يقوم بدور محوري في بناء انسجام النص، حيث أسهمت آليات التكرار المعجمي والسردي والقيمي في إضفاء وحدة دلالية جعلت القارئ يتابع النص وفق شبكة متواترة من العلامات. فتكرار مفردات العلم، والنظام، والنظافة، والصدق، لم يكن تكرارًا لفظيًا فقط، بل كان تعبيرًا عن مشروع حضاري متكامل، هدفه ترسيخ قيم النهضة في الوعي العربي.

أما المبحث الثاني فقد أبرز أنّ التباين السيميائي كان أداة حجاجية بامتياز، إذ لم يقتصر الطهطاوي على عرض صورة باريس، بل جعل منها مرآة يرى القارئ الشرقي من خلالها واقعه المتخلف. فجاءت الثنائيات الكبرى (النظام/الفوضى، العلم/الجهل، الحرية/الاستبداد، الشرق/الغرب) لتؤكد الهوة الحضارية، وتفتح في الوقت نفسه أفقًا للتغيير عبر إمكان الإصلاح. كما أنّ إدراج ثنائية (العفة/الانحلال) أضاف بعدًا اجتماعيًا وأخلاقيًا إلى شبكة التباينات، مما كشف عن وعي نقدي مبكر بقضية المرأة، وعن محاولة لتفكيك الصور النمطية بين الشرق والغرب.

بناءً على ذلك، يمكن القول إنّ الطهطاوي نجح في توظيف التشاكل والتباين كآليتين سيميائيتين متكاملتين: فالأولى (التشاكل) أسست لانسجام داخلي يرسّخ القيم الإصلاحية، والثانية (التباين) خلقت توترًا دلاليًا يحفّز القارئ على إدراك الحاجة إلى التغيير. وهكذا تحوّل النص إلى مشروع حضاري، يتجاوز حدود الوصف الرحلي، ليصبح وثيقة إصلاحية تسعى إلى إعادة بناء الوعي العربي على أسس العلم والنظام والحرية، مع الحفاظ على القيم الأخلاقية الأصيلة.

إنّ قراءة تخليص الإبريز في ضوء السيميائيات تكشف أنّ هذا النص كان نواة مبكرة لما يمكن تسميته بـ"السرد الإصلاحي"، حيث تلتقي البلاغة بالثقافة، والتكرار بالتباين، لإنتاج خطاب نقدي إصلاحي لا يزال أثره ممتدًا في حاضرنا الثقافي والفكري.

المصادر والمراجع:


- أبو ديب، كمال. جدلية الخفاء والتجلي: مقاربة في سيمياء الشعر العربي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٢.
- بارت، رولان. لذة النص. ترجمة: فريد الزاهي. الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٣.
- بنكراد، سعيد. السيميائيات: أسسها وتطبيقاتها. الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٥.
- سعيد، إدوارد. الاستشراق. ترجمة: كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١.
- الطهطاوي، رفاعة. تخليص الإبريز في تلخيص باريز. تحقيق: خالد زيادة. بيروت: دار آفاق، ٢٠٠٢.
- الغذامي، عبد الله. النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.
- غريماس، ألجيرداس، جوليان. البنيات الدلالية. ترجمة: سعيد بنكراد. بيروت: دار توبقال، ١٩٨٧.
- فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢.
- فضل، صلاح. علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨.
- مرتاض، عبد الملك. في نظرية القراءة: نحو تصور سيميائي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠.
- مفتاح، محمد. تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥.

- مفتاح، محمد. دينامية النص: تنظير وإنجاز. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.


**Sources and References**


- **Abu Deeb, Kamal.** *Jadaliyyat al-Khafaʾ wa al-Tajalli: Muqaraba fi Simiyaʾ al-Shiʿr al-ʿArabi*. Beirut: Arab Institution for Studies and Publishing, 1992.
- **Barthes, Roland.** *Ladhat al-Nass*; trans. Farid al-Zahi. Casablanca: Dar Toubkal, 1993.
- **Benkirane, (Saʿid Benkrad).** *Al-Simiyaʾiyyat: Ususuha wa Tatbiqatuha*. Casablanca: Dar Toubkal, 1985.
- **Said, Edward.** *Al-Istishraq*; trans. Kamal Abu Deeb. Beirut: Arab Research Foundation, 1981.
- **Al-Tahtawi, Rifaʿa.** *Takhlis al-Ibriz fi Talkhis Bariz*; ed. Khaled Ziyada. Beirut: Dar Afaaq, 2002.
- **Al-Ghadhami, Abdullah.** *Al-Naqd al-Thaqafi: Qiraʾa fi al-Ansaaq al-Thaqafiyya al-ʿArabiyya*. Beirut: Arab Cultural Center, 2000.
- **Greimas, Algirdas Julien.** *Al-Binyat al-Dalaliyya*; trans. Saʿid Benkrad. Beirut: Dar Toubkal, 1987.
- **Fadl, Salah.** *Balaghat al-Khitab wa ʿIlm al-Nass*. Cairo: Dar al-Shorouk, 1992.
- **Fadl, Salah.** *ʿIlm al-Uslub: Mabadiʾuhu wa Ijraʾatuhu*. Cairo: Dar al-Shorouk, 1998.
- **Murtad, Abd al-Malik.** *Fi Nazariyyat al-Qiraʾa: Nahwa Tasawwur Simiyaʾi*. Beirut: Dar al-Gharb al-Islami, 2000.
- **Miftah, Mohammed.** *Tahlil al-Khitab al-Shiʿri: Istratijiyyat al-Tanas*. Casablanca: Arab Cultural Center, 1985.
- **Miftah, Mohammed.** *Dinamiat al-Nass: Tanzir wa Injaz*. Casablanca: Arab Cultural Center, 1987.